الأحد: 2023/10/29

التّوقيت: 11:20 – 12:50

القاعة: 14 في الكليّة

المحاضرة رقم 06: أشكال التّعبير النّثري التّقليدي

فنّ المقامة أنموذجا.

1/ تعريف المقامات:

هي عبارة عن فنّ أدبي نثريّ وهو من أقدم الفنون الأدبيّة التي ظهرت بعد الإسلام، فقد بدأ هذا الفنّ في الظهور في القرن الرّابع الهجري، والمقامة هي أقرب للرّواية الخياليّة، حيث أنّها تروي قصّة أو حكاية متّصلة ومحبوكة على لسان راوي، وهذه الحكايات قصيرة متفاوتة الحجم جمعت بين النّثر والشّعر بطلها رجل وهميّ، عرف بخداعه ومغامراته وفصاحته وقدرته على قرض الشّعر وحسن تخلّصه من المآزق إلى جانب أنّه شخصيّة فكاهيّة نشطة تنتزع البسمة من الشّفاه والضّحكة من الأعماق.

والغرض الأساسي من المقامة هو النّصح والوعظ والتّعليم، حيث كانت كلّ مقامة تحكي على لسان الرّاوي قصّة وعبرة تحدث لبطل المقامة والذي يطلق عليه المكدي والذي ينتصر دائمًا في نهاية القصّة، وكلمة المقامة في تعريفها هيّ "المجلس يقوم فيه الخطيب بالحث على فعل الخير"، ويرى يوسف عوض أنّ "المقامة في إطارها اللّغوي تمثّلت في حديث يُلقى على جماعة من النّاس، إما بغرض النّصح وإمّا بغرض الثّقافة العامّة أو التّسوّل.. وكلّ ما يميّزها أنّها حديث ذو نزعة وعظيّة أو ثقافيّة نقديّة تقى على جماعة من النّاس"، أي معناها في **اللّغة** المجلس الذي يجلس النّاس فيه، **والتّعريف الأدبي** للمقامة هي قضيّة تدور جميع أحداثها في جلسة واحدة.

وبالطّبع كان العرب منذ قديم الأزل يقيمون المجالس ويردّدون الحكايات بهدف الاستمتاع في المجالس، وكانت تلك القصص تعبر عن معتقداتهم وأفكارهم وعاداتهم الاجتماعيّة.

2/ عناصر المقامة:

تتكوّن المقامة الأدبيّة من ثلاثة عناصر هي (الرّاوي، والمكدي (البطل) والعقدة).

- **الرّاوي:** هو الذي تروى القصّة على لسانه في المقامة نفسها.
- **المكدي (البطل):** هو بطل المقامة الذي تدور حوله القصّة بأكملها وينتصر في نهاية القصّة.
- **العقدة**: هي التي تحاك حولها قصّة المقامة وأحيانًا تكون العقدة بعيدة عن الأخلاق الكريمة وأحيانا تكون سمحة.

وتبنى المقامات على الإغراق في استخدام أسلوب السّجع والبديع، فهي عبارة عن قصّة قصيرة أو حكايات قصيرة مسجوعة بطلها نموذج إنساني (مكد ومتسوّل) وهو اسم يُطلق على فئة المحتالين الأذكيّاء المكارين البُلغاء، حيث يستطيع الشّخص المُكدي خداع الجماهير بالذّكاء والفطنــة والمكر والحيلة من خلال إيهامهم بفصاحته وعلمه وحُسن أخلاقه وتديّنه وحسن سيرته.

وللمقامة راو وبطل وهي تقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبيّة أو مسألة دينيّة أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونا من ألوان النّقد أو الثّورة أو السّخريّة وضعت في إطار من الصّنعة اللّفظيّة والبلاغيّة.

وتنبع أهميّة فنّ المقامة في مجال الأدب المقارن فقد قلّدها بعض الكتّاب الفرس كما يعتقد أنّها أسهمت في ظهور روية المكديين التي ظهرت في اسبانيا في القرن السّادس عشر الميلادي ثم شاعت في أوروبا لتصبح مقدّمة لظهور الرّواية النّثريّة.

أسباب ظهور المقامات الأدبيّة:

يوجد سببان رئيسيّان ساهما في ظهور فنّ المقامات الأدبيّة، وهما ما يلي:

الظّروف السياسيّة:

بحلول القرن الرّابع الهجري وفي العهد العبّاسي ظهرت العديد من الفتن في جميع أرجاء الدّولة الإسلاميّة التي انقسمت إلى عدّة دويلات، نشأت فيها التّفرقة العرقيّة والقوميّة، ممّا ألحق ضرر كبير بالوضع السيّاسي للدّولة، وبالتزّامن مع هذه الأوضاع ظهر فنّ المقامات الأدبيّة بسماته وملامحه وخصائصه، وانتشرت هذه الحركة الفنيّة الجديدة في أجواء تعصف بها الخلافات والمشاكل والفتن، إلى جانب التّغييرات التي وصل إليها المجتمع العبّاسي في البناء والطّعام والفنّ، وبرع بديع الزّمان الهمذاني في تصوير الحال الجديد للمجتمع من خلال مقاماته الأدبيّة.

الظّروف الاجتماعيّة:

سارت الحياة الاجتماعيّة في هذه الفترة على خطى الحياة السيّاسيّة المضطربة، فراح أمراء الدّويلات الجديدة المتناثرة في جميع أراضي الدّولة الإسلاميّة يتنافسون في ابتداع ألوان التّرف والمتعة وطلب ملذّات الدّنيا، ويتفنّنون في التّسابق للوصول إلى مختلف أشكال التّرف التي يمكن للعقل تخيّلها ولكن لا يمكن جعلها واقع في الحقيقة، ومن الطّبيعي أن يكون ثمن هذه التطلّعات والعيش الرّغيد باهظ للغاية، وكان على الشّعب تحمّل نتيجة تحقيق أحلام قادته، وفي ظلّ هذه الحياة المضطربة كان من الطّبيعي أن تكثر المجاعات وتتفشى السّرقات وتسود ألوان

الجرائم والفجور وينتشر الاستجداء والتسوّل، وجاء ظهور المقامات الأدبيّة تعبيرًا عن الوضع الذي آلت إليه الدّولة العباسيّة ولإيجاد متنفّس يخفّف من وطأة هذه الأحداث العصيبة.

2/ أنواع المقامات:

إنّ تصنيف المقامات يتمّ غالبًا تبعًا لكاتبها، حيث اشتهر كلّ كاتب بتقديم نوع محدّد من المواضيع، وكانت المقامات تسمّى نسبة لموضوعها.

- المقامات العربيّة:

هي التي ظهرت في العصر العبّاسي، ومن أشهر من قاموا بكتابة المقامات العربيّة:

- **بديع الزّمان الهمذاني**
- **أبو القاسم الحريري**
- **ابن النّاقيا:** بغدادي الأصل كتب المقامات العربيّة بعد تأثّره ببديع الزّمان الهمذاني، وكان يحاول أن يحاكي الهمذاني في اختيار عبارات رنّانة، لكنّه لم يكن يهدف في مقاماته للنّقد الاجتماعي.
- **الزّمخشري:** هو فخر خوارزم أبو القاسم الزّمخشري، وقد كتب خمسين مقامة وكان هدفها جميعًا النّصح والوعظ، منها مقامة: (المراشد) ومقامة (التقوى) ومقامة (الإرعواء) والتي تعني الرّجوع للرّشد والطريق الصّحيح، وكان الزّمخشري يبدأ مقاماته دائمًا بنداء "يا أبا القاسم".
- **ابن الجوزيّ:** وله مقامات سمّها بمقامات الجوزيّة وهي تمتاز بصبغتها الصّوفيّة.
- **الحنفي:** وله مقامات سمّها بمقامات الحنفيّ الّتي اتبّع فيها جانب الاعتدال.

- المقامات الأندلسيّة:

هي التي ظهرت بين القرنين الخامس والتّاسع الهجري، ومن أشهر روّاد فنّ المقامات الأندلسيّة أبو حفص بن شهيد، وأبو مطرف عبد الرّحمن بن فتوح، وقد اتّسمت المقامة الأندلسيّة بالإطناب والطّول وهذا من أهم الاختلافات بين خصائص المقامات في الأندلس وخصائص المقامات في العصر العبّاسي، كما أنّ الرّاوي اختفي في كثير من المقامات الأندلسيّة.

ومن أشهر كتّاب المقامات في الأندلس أبو الطّاهر السَّرَقُسْطي (ت 538 هـ/1143 م)، فقد ألّفَ خمسين مقامة بعدد مقامات الحريري وسماها المقامات اللزوميّة، تناول فيها عدداً من الموضوعات المتنوّعة في البيئة الأندلسيّة، فمنها الوصفيّة والوعظيّة والفكاهيّة والأدبيّة والنّقديّة وغير ذلك من الموضوعات، وقد طرقت مقاماته العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد وروابط الصّداقة، ووصف الصّديق، وتناولت موضوعات الضّيوف والكرم وما يكون من الكرماء من العطاء، وأشارت إلى المشكلات اليوميّة المتعلّقة بحرفة الإنسان ومهنته، وهكذا

جاءت المقامة تعبيراً عن حاجة اجتماعيّة لبيئة الكاتب، فقد صوّرت كثيراً من ظواهر المجتمع، وعالجت جملة من المشكلات الاجتماعيّة المختلفة، وعبّرت عن آراء الكتّاب ومشكلاتهم وهمومهم الذّاتيّة، وفي هذا الرّابط، من موقع (الأدب العربي) معلومات تفصيلية عن مقامات السَّرَقُسْطي

https://almerja.com/reading.php?idm=53907

وكذلك انظر دراسة قيّمة للدّكتور عبد الرّحيم حمدان عن المعالجة الاجتماعيّة في هذه المقامات، بعنوان (البعد الاجتماعي في المقامات اللّزوميّة للسَّرَقُسْطي) في موقع (ديوان العرب) في هذا الرّابط

http://www.diwanalarab.com/spip.php?article20702

- المقامات الفارسيّة:

اقتبس الفرس من المقامات العربيّة، لكن خصائص المقامة الفارسيّة كانت مختلفة عن المقامات العباسيّة، وكان من أشهر من ألّفوا المقامات في بلاد فارس قاضي حميد الدين أبو بكر محمد البلخي.

- المقامات العربيّة الحديثة:

ظهرت في العصر الحديث مجموعة من المقامات ولو أنّها ليست غزيرة لكن يعتبر النّقاد أنّ فنّ المقامات استمرّ حتّى القرن التّاسع عشر الميلادي تقريبًا وأنّ الشّاعر والأديب أحمد فارس الشّدياق كان من شعراء المقامات في العصر الحديث، إضافة إلى ناصيف اليازجي والمويلحي.

إذن المقامات بكلّ أنواعها هي عبارة عن حكاية نثريّة، لا تخلو أيضًا من أبيات الشّعر، وتحمل بداخلها موعظة أو نقد أو مدح أو ذمّ وغيرها من المواضيع النّثريّة المعروفة، وقد ظهر هذا الفنّ وازدهر في العصر العبّاسي، وتطوّر وانتقل لبلاد الأندلس وبلاد فارس، وتمّت ترجمته أيضًا لبعض اللّغات الأوروبيّة، إلاّ أنّ العهد الذّهبي للمقامات كان في فترة العصر العبّاسي، مع وجود بديع الزّمان الهمذاني وأبو القاسم الحريري.

خصائص المقامات الأدبيّة:

من أبرز خصائص المقامات الأدبيّة ما يلي:

1/ اختيّار كاتب المقامات لأعماله بطل واحد تدور جميع حكايات مقاماته حوله، ويختار راوي معيّن لسرد تلك الأحداث.

2/ يميل اختيّار ألفاظها إلى وجود فنون البلاغة المتنوّعة بما فيها الكنايات والتّشبيهات والاستعارات والمجاز، وتغلب على الألفاظ الغرابة المثيرة.

3/ تتميّز المقامات الأدبيّة بمحتواها الغنيّ بالحكم والمواعظ والعِبر.

4/ تدور معظم حكايات المقامات حول الاحتيّال والتّرحال بين البلدان لكسب الرّزق بالمكر والحيلة.

5/ للمقامات الأدبيّة فائدة تعليميّة، فعندما يستمع إليها طلاّب العلم ويحفظونها فإنّهم بذلك يتزوّدون برصيد لغويّ عظيم ومفيد.

6/ يمتلئ أسلوب المقامات الأدبيّة بالصّناعة اللّفظيّة من طباق وجناس مع ثبات دائم لوجود السّجع.

رواد المقامات:

1/ بديع الزّمان الهمذاني:

يعدّ **بديع الزّمان الهمذاني** من الكتّاب الذي لهم الفضل في وضع أسس فنّ المقامة، وأوّل من روى المقامات ونظمها بشكلها المعروف، وهو أيضًا واضع خصائص المقامات في العصر العبّاسي، وأوّل من سمّى هذا الفنّ بالمقامة، والذي كتب ما يقرب من 400 مقامة لكن لم يصلنا منها سوى 50 مقامة، بدأ كتابتها منذ عام 375 هـ، وكانت مقاماته هي المرجع والنّموذج لكلّ من كتبوا المقامات من بعده، لكن هذا لا ينفي أن الهمذاني قد تأثّر بكتابات من سبقوه من أصحاب الفنون النّثرية مثل: ابن المقفع صاحب كتاب "ألف ليلة وليلة"، وقد عكف طلاّب الأدب في جميع الأطوار العربيّة على دراسة مقامات الهمذاني والاستفادة منها وترتيلها مثلما ترتل الأناشيد الدّينية، وقد تميّز الهمذاني عن غيره ممّن كتبوا المقامات بقوّة التّعبير وجمال الصّياغة.

ويقول **جرجي زيدان** أنّ مقامات الهمذاني مقتبسة من رسائل الإمام اللّغوي أبي الحسين أحمد ابن فارس، أمّا **زكي مبارك** فيقول أنّ مقامات الهمذاني مشتقّة من أحاديث اللّغوي أبو بكر بن دريد والذي وضع 40 مقامة تم اعتبرها الأساس لفنّ المقامات.

ومع ذلك يبقى الهمذاني هو أوّل فتح بابه واسعاً لفنّ المقامة ليلجه أدباء كثيرون أتوا بعده وأشهرهم (**أبو محمّد القاسم الحريري**)، ولفنّ المقامة فضل كبير في ذيوع صيت **بديع الزمان** الهمذاني إذ وضعه لغاية تعليمة فكثرت فيه أساليب البيان وبديع الألفاظ والعروض، وأراد التّقرب به من الأمير خلف بن أحمد فضمّنه مديحاً يتجلّى خاصّة في المقامة الحمدانيّة

والمقامة الخمريّة فاعتمد فيها على الأسلوب السّهل، واللّفظ الرّقيق، والسّجع القصير دون أدنى عناء أو كلفة.

تنطوي المقامات على ضروب من الثّقافة إذ نجد مقامات **بديع الزّمان** يروي مغامراتها التي تثير العجب وتبعث الإعجاب رجل من رجال التّاريخ يدعى **عيسى بن هشام**، وبطلها **أبو الفتح الإسكندراني**، حيث يسرد علينا بديع الزّمان أخباراً عن الشّعراء في مقامة **"الغيلانيّة"** ومقامة **"البشريّة"** وزوّدنا بمعلومات ذات صلة بتاريخ الأدب والنّقد الأدبي في مقامة **"الجاحظيّة"** و**"القريضية"** و**"الإبليسية"**، كما يقدّم في المقامة **"الرّستانيّة"** وهو السنّي المذهب، حجاجاً في المذاهب الدّينيّة فيسفه عقائد المعتزلة ويردّ عليها بشدّة وقسوة، ويستشهد أثناء تنقلاته هذه بين ربوع الثّقافة بالقرآن الكريم والحديث الشّريف، وقد عمد إلى الاقتباس من الشّعر القديم والأمثال القديمة والمبتكرة.

فكانت مقاماته مجلس أدب وأنس ومتعة وقد كان يلقيها في نهاية جلساته كأنّها ملحة من ملح الوداع المعروفة عند أبي حيان التّوحيدي في كتابه **"الامتناع والمؤانسة"**، فراعى فيها بساطة الموضوع، وأناقة الأسلوب، وزوّدها بكلّ ما يجعل منها:

1/ وسيلة للتّمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النّثر والنّظم.

2/ رصيد لثروة معجميّة هائلة.

3/ مستودعاً للحكم والتّجارب عن طريق الفكاهة.

4/ وثيقة تاريخية تصوّر جزءاً من حياة عصره وإجلال رجال زمانه.

كما أنّ مقامات **بديع الزّمان** تعدّ نواة المسرحيّة العربيّة الفكاهيّة، وسببًا لنشأة أدب الكديّة وقد خلّد فيها أوصافاً للطّباع الإنسانيّة، فكان واصفاً بارعاً، وكانت مقاماته تدعو إلى الصّدق والشّهامة ومكارم الأخلاق التي أراد إظهار قيمتها بوصف ما يناقضها.

خصائص مقامات بديع الزّمان الهمذاني:

- تميّزت عن غيرها بقصر المقدمة.
- الدّعابة والمرح والتّهكم.
- عدم تكرار المعنى، قلّما تجد مقامتين لبديع الزّمان تكرّران نفس المعنى.
- اهتمّ فيها بعرض مساوئ المجتمع لكنّه لم يهتم أبدًا بإصلاح تلك العيوب.
- أحسن تحليل طبائع النّاس، لكنه كثير الاحتقار للنّاس في مقاماته.
- كان أسلوبه يتميّز بالفصاحة والسّهولة والوضوح، مع حسن تركيب الجمل واختيار الألفاظ دون تكلّف أو إغراق في استخدام السّجع.

- يستهلّ جميع مقاماته بقول حدّثنا.
- كان الرّاوي في مقامات الهمذاني دائمًا هو عيسى بن هشام وبطل كلّ مقاماته هو أبو الفتح الإسكندري.

المواضيع التي تناولتها مقامات بديع الزمان الهمذاني:

- **المديح:** فقد كتب الهمذاني ستّة مقامات في مديح والي سجستان، بعد أن عاش هناك عامين، وقد بالغ وأطنب في مدح وذكر محاسنه.

- **النّقد الأدبي:** فقد قام الهمذاني بنقد الشّعراء والكتّاب الآخرين في أربعة مقامات مثل الفرزدق وامرؤ القيس وغيرهم، حتّى أنّه كتب في نقد الجاحظ مقامة سميّت بالجاحظيّة وهو ينتقده فيها لأنّ نثره يخلو من السّجع.

- **الوعظ الدّيني والزّهد:** فالمقامة الوعظيّة والمقامة الأهوازيّة تحملان دعوة للزّهد والتأمّل.

- **الحثّ على العلم والتّعليم:** فمقامات بديع الزّمان لا تخلو من الوعظ على لسان الإسكندري أو حتّى بشكل مستعار.

2/ أبو القاسم الحريري:

عند الحديث عن فنّ المقامة فإنّ الحريري لا يمكن إغفاله إذ يعتبر من تلامذة الهمذاني وفي نفس الوقت من مؤسّسي قواعد فنّ المقامات، وتقوم مقامات الحريري بإكمالها على اِبتزاز المال من خلال الحيلة والمغامرات، ولغتها كانت متناسقة ومتينة، ولا تخلو من بعض التّصنّع، يبدأ الحريري مقاماته بإسناد الكلام إلى روايتها الحرث بن همّام ولكنّه لا يقتصر كالبديع على قوله حدّثنا بل يميل إلى التّغيير في بدأ كلّ مقامة فينتقل بين (حدّث، روى، حكى، أخبر، قال) وهي أداة سرديّة كانت تصطنعها شهر زاد في سرد حكايات ألف ليلة وليلة، وكان مكدي بطل مقاماته هو أبو زيد السّروجي.

الحريري في مقاماته أكثر تعلّقا بالحواضر من بديع الزّمان، فما يكاد يخرج إلى الباديّة إلاّ في واحدة منها أو اثنين، ومقاماته في الغالب أطول من مقامات أستاذه، بيد أنّ طولها لا يعود على اتّساع الفنّ القصصي فيها، وإنّما على اجتماع خبرين في مقامة واحدة، أو على فيض الألفاظ وكثرة المترادفات ومعاقبة الجمل على المعاني، أو على الإكثار من الشّعر وفيه القصائد التي يشرح بها أو يزيد أحواله ويقصّ إخباره.

وللحريري لغة متينة قصيرة الجمل، يقطعها تقطيعا موسيقيّا فما تتعدّى جملته الكلمتين أو الثّلاثة فلّما زادت بلغت الخمس أو السّت وهو في إنشائه بادئ الصّنعة ظاهر التكلّف يتعمد

الغريب ويسرف في استعماله ويفرط في اصطناع المجاز والتّزيين حتّى تجفّ عبارته ويمل ماؤها ويعبر مساغها، وتأتي أهميّة مقامات الحريري أنّ تلك المقامات تعدّ غرضا أخلاقيّا.

ثمّ تبع الهمذاني والحريري عدد كبير من الكتّاب القدامى والمحدثين فكتبوا في هذا الفنّ من أبرزهم الزّمخشري وجلال الدّين السّيوطي عن المشارقة، والسّرقسطي من الأندلس، أمّا المحدثين فأهمّهم اليازجي والمويلحي، وفي الآداب العالميّة نجد مقامة القاضي حميد الدّين أبو بكر البلخي باللّغة الفارسيّة وفي أوروبا وجود قصص ممثلات لبعض القصص الاسبانيّة بطلا واحدا اسمه بيكارون وهو يشبه من بعض الوجود أبو الفتح الاسكندري عند بديع الزّمان، وأبو زيد السّروجي عند الحريري.

وقد كان لفن المقامات العربيّة تأثيرٌ أدبي نثريّ، ليس فقط على مستوى الأدب العربيّ الحديث في فنّ القصّة والرّواية السّرديّة، وإنّما وصل التّأثير في أدب العالم، مثل تأثيرها في الكوميديا الإلهيّة لدانتي، وفي قصص الشطّار الأسبانيّة الّتي تتحدث عن أحوال المجتمع وظروف الأغمار من النّاس.

إذن تعدّ المقامات إحدى الفنون النّثريّة التي يبالغ فيها الاهتمام باللّفظ والأناقة اللّغويّة وحمل الأسلوب بحيث تتعدّى الشّعر في احتوائها على المحسّنات اللّفظيّة إلاّ أنّها لم تحظى باهتمام الأدباء والنّقاد وهذا لا يعنى أنّهم أهملوا هذا الفن كليّا بل المقصود هو أنّ النّثر بشكل عام والمقامات على وجه الخصوص نالا أقلّ اهتمام بالمقارنة إلى ما ناله الشّعر العربي من علوّ في الشّأن، ومع ذلك يعتبر فنّ المقامة موسيقى العرب الكلاسيكيّة ويقترن بالغوص في عالم المقامات الشّرقيّة وفي سلالمها السّاحرة من خلال لحظات موسيقيّة يستخرج فيها الفنّان ثمار إبداعه ملتزما بالأداء الفرديّ مرتجلا ذروة انفعاله الشّعوري والنّغمي باحثا عن روح المقام مثيرا في وجدان المستمع نشوة الطّرب.

وقد استعرضَ شوقي ضيف في كتابه (المقامة) مجموعة من أبرز من كتبوا في فنّ المقامة عبر التّاريخ العربي الإسلامي، ومنهم المذكورون أعلاه وغيرهم، وستجدونهم هنا في الرابط أدناه

/https://www.alukah.net/culture/0/138997